خصيصات الدرس البلاغي و مؤثلاته بعد الإمام عبد القاهر الجرجاني (بصمات الأئمة الزمخشري و الفخر الرازي و السكاكي أنموذجا)

د.خلادي محمد الأمين

جامعة أدرار

ملخص

هذه دراسة تقدم بعض النماذج التي توضح ما بلغه الدرس البلاغي بعد الإمام عبد القاهر الجرجاني(**ت 471 هـ**)؛ مع بيان جهود علماء البلاغة في المنهج والنظرية و نقد الرؤية السابقة لعلوم البلاغة العربية، ومن هؤلاء الأعلام: الأئمة الزمخشري(**ت538هـ**)، الفخر الرازي (**ت606هـ**)، السكاكي(**ت 626 هـ**).

كما أن الدراسة تحاول استنباط النتائج العلمية والمنهجية من نظريات أولئك العلماء من خلال مؤلفاتهم الشهيره، أضف إلى ذلك الإشارة إلى طرح مقارن بين ما وصلوا إليه مقابل منجز القدماء في الدرس البلاغي ونقده و تقويمه في الأسس والمنهج وتعليمية الدرس البلاغي العربي قديما وأثرها في المتلقي.

Résumé

Cette étude fournit quelques exemples qui illustrent ce cours de langue rhétorique après l'Imam puissant Abdul qaher AlJerjani **(471هـ)**, avec une indication des efforts des scientifiques dans le programme et la théorie de la rhétorique et de la vision précédente critique des sciences arabes rhétoriques, et ces drapeaux: les imams Zamakhshari (هـ 538), la fierté Razi (606هـ), Alskaki (هـ 626) .

L'étude tente de tirer des conclusions à partir des théories scientifiques et méthodologiques de ces scientifiques à travers leurs livres célèbres. Ajouter à cela la référence pour demander une étude comparative entre ce qu'ils ont accompli contre l'ancien inachevé dans la leçon de rhétorique et de la critique et de l'évaluation dans les fondations et le curriculum et l'enseignent des anciens cours de la rhétorique arabe et son impact sur l'apprenant.

مقـــدمة

بلغ الدرس البلاغي ذروة البحث المعمق في أيام العلامة عبد القاهر الجرجاني الذي استطالت على يده المباحث البلاغية بروية الطرح ورجاحة المنهج والعرض؛ من خلال مؤلفاته بالأخص دلائله وأسراره، وكان قد أبرز جهوده موفقا بين الأطاريح الشتى، بين أنصار اللفظ ودعاة المعنى، كما جاء بمعنى المعنى ونظرية النظم.

وقد بيّن الأستاذ شوقي ضيف مراحل تطور البلاغة ونشأتها بأعلامها وخصائصها عبر القرون، مبرزا أوجه القوة وصور الضعف ضاربا الأمثلة مستندا على مدونات البلاغة القديمة بدءا من عصر ما قبل صدر الإسلام إلى عصر الزخرف البديعي(656هـ 1213) الموافق لـ (1258 م 1798).

و ههنا ننطلق من جهود العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، إذ يقول شوقي ضيف موضحا رأيه في أعمال الإمام الزمخشري بعد تأثيلات الإمام عبد القاهر الجرجاني:«...وخلفه الزمخشري يطبق تطبيقا رائعا قواعد العلمين * جميعا في تفسيره لآي الذكر الحكيم، مضيفا إليهما من لفتاته الذهنية البارعة ونظراته التامة النافذة ما جعلهما يبلغان حد الكمال»[1]؛ فتلك مقولة تطلعنا على منطلق الجهد البلاغي لدى الزمخشري الذي بنى أسسه التطبيقية على صيغ عبد القاهر الجرجاني، وهي مزية تعاضدت فيها رؤى الأولين في أطروحاتهم البلاغية تعاملا مع الأسلوب والبيان والمعاني وبناء الكلام في اللغة.

---

*– المراد بهذين العلمين حسب المقولة من قبل: المعاني والبيان

[1] – شوقي ضيف، **البلاغة تطور وتاريخ**، دار المعارف، مصر، ط: 9، 1995، ص 6.

أولا: أثالة البصمة البلاغية في كشاف الزمخشري: (ت 538هـ)

لعل من أبلغ المصنّفات التي تقرّب إلينا بصمة الدرس البلاغي عند الزمخشري نكتة البلاغة البيانية في تفسيره " **الكشاف**" الذي يغلب عليه الطابعان الكلامي والبلاغي؛ ولا ضير في سير الشواهد البلاغية الزمخشرية على ديدن البلاغيين الأوائل، إلا أنه انفرد بطريقته المتّسمة بالتعمّق العقلي البلاغي في قراءة مواطن المباحث البلاغية ضمن آيات الذكر الحكيم.

وبناءً على ذلك فتفسير الإمام في جوانبه البلاغية اعتبر تطبيقا للمبادئ النظرية السالفة «ونال شهرة مدوية في العالم الإسلامي منذ عصره بسبب "الكشاف" إذ استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، تعينه في ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التنزيل وتكشف غن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أبي مرهن يقيس الجمال البلاغي قياسا دقيقا وما يطوى فيه من كمال وجلال»[1]، وهذا علامة من علامات التفسير البلاغي الإعجازي الذي مازَ بصمة الزمخشري عن غيره، فيخلد القارئ الباحث إلى تلك الجواهر في قراءته مرات ومرات، وهو تفسير يأخذ بألباب الباحثين إلى غاية اليوم.

قمين بالدارسين أن يتأملوا البصمة البلاغية التي ركّز عليها الزمخشري في منهجه التفسيري، ناصحا أهل حقول معرفية أخرى بأخذ وافر من علمي المعاني والبيان قوله :«إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب ونكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم.. فالفقيه وإن برز على الاتّزان في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان

[1] – شوقي ضيف، المرجع نفسه، ص 219.

من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحْييه، لا يتصدى منهم لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة».[1]

ونستنبط من هذا ما يأتي:

1-مقولة تنبئ بعلامة عارف بعلوم العربية وآلات العلوم الأخرى التي تتوفر في عالم التفسير، رغم اعتزاله.

2-وجوب توفر المكنة الجيّدة التي هي رأس الشرائط المؤهلة للمفسّر.

3-الحكم على سائر المعارف كالفقه وعلم الكلام والقصص والوعظ والنحو واللغة.. بأنها قاصرة بمفردها ما لم تتزين بعلم المعاني والبيان، وهما آلتان مركوزتان في شرح كتاب الله تعالى.

4-فطنة الزمخشري في معرفة الحس البلاغي ووظائفه التي تيسّر للعالم كشف الأسرار البيانية في الذكر الحكيم؛ وبيانه عن الجهد الكبير والزمن الطويل الذي يتطلبه هذان العِلمان من المفسِّر.

وذاك الذي دفع بالدكتور شوقي ضيف أن يصف الزمخشري المفسّر العبقري أنه « من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير، بل لقد بذّ الأوائل والأواخر، حتى لنرى أهل السنة يشيدون به وبتفسيره، على الرغم من اعتزاله، ومخالفتهم له في عقيدته الاعتزالية».[2]

---

[1] – أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار المعرفة، بيروت، (لبنان)، ج1، ص 3.

[2] – شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 219، 220.

ومنه فالعبرة من تفسير الزمخشري في سياق هذا البحث؛ معرفتنا الخصوصيات التي تميّز بها في منهجه التفسيري من خلال قراءاته البلاغية للآية الكريمة من جهة علم المعاني وعلم البيان؛ وهذا نموذج من الكشاف تفسيره قول الله تعالى:﴿ قالَ أَغيرَ الله أبغيكُم إلهاً وهو فضّلكُم على العالَمين﴾ أغيرَ المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً وهو فعل بكم ما فعل دون غيره من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيرَكم لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره ومعنى الهمزة الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله عبادة غير الله...».[1]

فهو يقرأ التركيب اللغوي للأسلوب المعجز قراءة تحمل القارئ المتدبر على تصور مقنع للمعنى القابع في أوعية اللفظ داخل نسق بياني، يترجم الأسلوب الإنشائي الاستفهامي ترجمة تبسط للمطلع على تفسيره المعاني المرادة من الآية الكريمة، مبرزاً غاية النبي –عليه السلام–من همزة الاستفهام التي تجاوزت الطلب المباشر والسؤال المبهم إلى معنى الإنكار؛ وهي لطيفة بلاغية يكشفها بحسّه الظريف الدقيق في لغة المعاني وعلمها.

وهو بلاغي مفسّر يحفل في قراءاته بالتركيب والسياق وإعجاز النظم، كالذي أبان عنه في النموذج السابق، وهو «ما يصور نزعة الزمخشري البلاغية في تفسيره، وأن عنايته تنصبّ على بيان نسق النظم أو الأسلوب في القرآن»[2]؛ ذلك لأن العبرة في الإقناع والإفهام لدى المتلقي مراعاة الوحدة المجملة للمعاني من وراء القوالب اللفظية، لا الصورة

---

* سورة الأعراف، الآية 140.

[1] – أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج2، ص 87، 88.

[2] – شوقي ضيف، المرجع نفسه، ص 224.

الاجتزائية للمعنى مفرداً بعيداً عن انعقاده بوحدات النظام البياني الأخراة وهي في تضام منسجم منسق.

ومن جميل المباحث البلاغية وعرضها في تفسير الزمخشري، أن الآيات الكريمات في ترتيبها المصحفي تُملي على المفسّر اللطائف البلاغية انطلاقاً من أسرارها، كمبحث الحذف «... ويقول في آية الإسراء: ﴿ وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها﴾: المأمور به إنما حذف، لأن فسقوا يدل عليه أي أمرناهُم بالفسق، وهو كلام مستفيض، يقال أمرته فقام وأمرته فقرأ، لا يُفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة...».[1]

ذلك الذي يسوقه الأستاذ ضيف في بيانه عن نماذج في التفسير البلاغي للزمخشري في تلك الآية الكريمة من سورة الإسراء، بحيث نلحظ طريقة العرض لمبحث الحذف تتخلل الحديث عن شرح المعاني الأخرى، بما فيها لفظ (ففسقوا فيها)؛ لأن المحذوف مذكور من خلال قوة المذكور الدلالية داخل السياق القرآني.

وعن التفسير الكشافي للزمخشري في باب البيان؛ فإن له بصمة متميزة تدل على مفسّر عارف بعلوم البلاغة ونقد البيان العربي في الإبداع الشعري والنثري ثم قراءة القرآن العظيم بعين بيانية،كما فعل في باب المعاني، وقد استمد الزمخشري من بحوث الجرجاني رؤى عديدة في تفسير الصورة البيانية وتعبيرات المجاز في معرض الحديث عن آيات الذكر الحكيم التي سيقت فيها التشبيهات والكنايات والاستعارات والمجازات.

يعرض الزمخشري أحاديثه البلاغية البيانية في تفسيره كلما طفق يقرأ شاهداً بيانيا يشرح ظلاله التصويرية الإعجازية؛ منطلقا من خصيصات

---

[1] – شوقي ضيف، المرجع نفسه، 224.

*– سورة هود، الآية 24.

الإعجاز اللغوي ابتداء؛ كعرضه تفسير الآية الكريمة قوله تعالى﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تتذكرون﴾*، «... شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق، وفيه معنيان أن يشبّه الفرق تشبيهين اثنين، كما يشبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبه بالذي جمع بين العمى والصم، أو الذي جمع بين البصر والسمع».[1]

وهذا يستنبط منه:

1- اعتماد الزمخشري على الدلالات اللغوية كمفاتيح أصول في الكشف عن دلالات الصورة البيانية القرآنية.

2- اطلاعه على الموروث البلاغي والنقدي العربي.

3- بصمة المنهج البلاغي تدل على المأخذ اليسير الذي يسوقه الزمخشري للمتلقي حفاظاً على إبلاغية المعنى، معتمدا تقريب المجرد من المحسوس.

ولم يثن الزمخشري عزمته الصلبة في بحوثه البلاغية التي امتزجت بالطرح اللغوي العام مركزاً على تفتيق شواهد النظم وعلامات الإعجاز، وعرض كل باب في ذلك من خلال مفصّله وأساس بلاغته، ناهيك عن تفسيره الكشاف «وسار الزمخشري على منهج الجرجاني في تحليلاته العقلية الذوقية وتطبيقاته البلاغية حتى قيل إن الزمخشري متمم لعمل الجرجاني في البلاغة، والحق أن بين هذين الإمامين صلة واضحة وشبها يتجلى في ثلاثة أمور: أولها أن كلا من الجرجاني و الزمخشري ذو نزعة عقلية، وتفكير منطقي، وأسلوب منهجي.

[1] - الزمخشري، **الكشاف**، ج2، ص 212.

وثانيها أن كلا منهما أديب يتذوق الجمال ويحسّه، ويحاول عن طريق العقل والمنطق أن يجد المسوّغ المعقول لجمال ما يستحسن، وفتح ما يستهجن.

وأما الأمر الثالث فهو أن البلاغة عند كل منهما لم تكن بلاغة جافة؛ قائمة على الحدود والتعريفات، وإنما كانت بلاغة تطبيقية في النماذج البليغة».[1]

وهذا تقدير حصين يبرز مكانة القراءة البلاغية لدى الزمخشري الذي نسج على منوال الجرجاني من قبله؛ فكلاهما قدّم جديده إلى المتلقي في حلّة معرفية منهجية مائزة راقية إذا قورنت بالمراحل من قبلها أو من بعدهما؛ حيث غلب على المراحل الأولى اللجوء إلى طرح دون آخر، إلى اللفظ أو إلى المعنى، كما غلب على المراحل الأخيرة الجمود والزخرف.

وقد اغتنم الزمخشري جهود الجرجاني بذكاء حاد، أضف إلى ذلك استعداده وموهبته وحذقه التي عرف بها، جعلته يتفطن إلى مواقع النظم الجديدة في جمال الإعجاز اللغوي، وبالأخص النظم المعجز إذ «وضح من اتجاه الزمخشري أنه قد تأثر إلى حد بعيد بدراسة عبد القاهر تطبيقا لفكرته في النظم، غاية ما هناك، هو أن عبد القاهر جعل ميدان تطبيقه في معظمه حول مأثور القول في فن الأدب وخاصّة في روائع الشعر العربي..

أما الزمخشري فقد جعل مجال تطبيقه على فكرة الإعجاز بالنظم هو القرآن الكريم كله يتفحص تراكيبه ويكشف عن جمال النظم فيه ولو صادف أن تعرض لما قد يكون هناك من جمال في اللفظ، فمن حيث هو مرتبط بمعناه، وليس معنى هذا أن الزمخشري قد أنكر الصفة البديعية، فبها

[1] – مازن المبارك، **الموجز في تاريخ البلاغة**، دار الفكر، بيروت، (لبنان)، (د.ت)، ص107.

يحسن الكلام، ولكنها قشر بجانب اللب، وما اللب إلا هذه الظلال المعنوية النفسية التي يوحي بها نظم الكلام».[1]

هو النظم الإعجازي في الذكر الحكيم الذي تراءى للزمخشري، وهو يقرأ كتاب الله تعالى؛ متدارسا ما وصل إليه الجرجاني في دلائله ورسالته وأسراره عن حقائق النظم، حتى تفرّغ للقراءة المباشرة في الآي كاشفا عن مواقع النظم كشفا عن جواهرها ودقائقها، وكل هدفه أنه لا يوقع الشرخ أو الفرق بين المبنى والمعنى، إيمانا منه بقداسة التركيب القرآني المعجز، حيث إنه مجموع بياني لا يجوز فصل مظهره عن جوهره أو العكس.

من أجل ذلك حق له أن يستبعد الصفة البديعية من البيان في الكلام والتعبير –إلى حد ما– لا استبعادا كاملا وإقصاء وإنكاراً كليين؛ فجعل البداعة طبقة ثانية في آلة الإبلاغ والتوصيل، موضحا للمتلقي تفاوت ما بين الطبقتين في قوة الإعجاز من جهتي اللفظ والمعنى والدال والمدلول «ولذا نراه –مثلا– يقول في جناس الآية ﴿ وجئتُك منْ سبَإٍ بنبإٍ يقين ﴾ * من جنس الكلام الذي سماه المحدثون: البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعاً، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده.

ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة، فحسن وبدع لفظاً ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان "بنبإٍ" (بخبر) لكان المعنى صحيحا، وهو كما جاء أصح، لما في (النبإ) من الزيادة التي يطابقها وصف الحال».[2]

وعليه فالزمخشري:

---

[1] – صلاح الدين محمد عبد التواب، **النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 1423هـ–2003م، الكتاب الأول، ص 166.

*– سورة النمل، الآية 22.

[2] – صلاح الدين محمد عبد التواب، المرجع السابق، ص 166.

1. أول بلاغي ومفسر ومصنّف بعد عبد القاهر يفصل حقيقة النظم تمثيلا في تفسيره لا وقوفاً عند حد التنظير والوصف.
2. ثاني عالم بلاغي يقرّ وجوب التوفيق بين اللفظ والمعنى بعد أستاذه الجرجاني، ودعوتهما لمعنى المعنى وتغليب النظم المعجز في القرآن الكريم تغليباً كليا مطلقا بخلاف بعض العلماء الذين غلبوا جهة اللفظ على المعنى أو العكس.
3. ترجيحه المعنى على اللفظ في كل الأحوال مع يقينه بالتلاؤم بين الألفاظ و استيساغه لجمال البديع المعجز؛ وقوله بلفظ (أصح) حينما قابل بين (بخبر) و(نبإ) علامة على تحكيم العقل بالاستدلال المنطقي المصحوب بذوق رفيع سليم.

ومجمل الأمر أنه قمين بالزمخشري أن يعلو الدرجة الثانية بعد الجرجاني في التفكير البلاغي من جهة "النظم"، وهو حقيق بها، ويكفيه فخراً صنيعه في تفسيره، وما أدراك ما الحديث عن النظم في القرآن العظيم بتفسير فريد كبير في اختصاصه ومنهجه «ولا عجب في أن يقف مثل الزمخشري منبهراً أمام ذلك الإعجاز القاهر، وقد وقف أمامه سابقوه مبهورين بعد أن أعملوا فيه فكرهم وأقبلوا عليه بحواسهم ومشاعرهم ثم لم يجدوا خيراً من أن يعودوا بعد طول دراستهم حول هذا الكتاب المعجز ولسان حالهم ينطق بما نطق به القرآن﴿ وإنّهُ لكتابٌ عزيزٌ لا يأْتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ﴾ *».

ثانيا: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي وأطروحته البلاغية.(ت 606هـ)

هو العالم الإمام المفسّر البلاغي الفذ الذي ساق كتابه " **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**" في الدراسات الإعجازية التراثية سوقاً يعيد النظر في

كتاب الإمام عبد القاهر الجرجاني، كما يذكر الدكتور شوقي ضيف «ونراه يعلن في فاتحته أنه سيعنى بتنظيم ما صنفه عبد القهر في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وقد نوّه بعمل عبد القاهر وبراعته في استنباط أصول هذا العلم وقوانينه وأدلته وبراهينه...».[1]

عناية كل لاحق بتصانيف السابق تقليد علمي منهجي، وهو سابقة مشهودة عند السلف من علمائنا الأوائل في كافة الحقول المعرفية؛ فالفخر الرازي قارئ ممتاز ومطلع عبقري يقلب الدلائل والأسرار ليفيض منبع البحث من جديد، بمنهج أدق وتلخيص أعمق؛ ذلك لحاجة العصر وأهله إلى تلك الآليات المنهجية التي من شأنها أن تحافظ على سلامة التلقين والتعلّم والتوجيه والإقناع للقرَأة والدارسين المتأخرين كلما حاولوا إعادة النظر في التراث البلاغي.

صناعة العنوان عند المتقدمين من علماء التراث العلمي الإسلامي صناعة عجيبة لطيفة ذات منهجية عبقرية ذكية، لم تكن ارتجالاً أو تزويقاً...، وإنما هي هندسة مركّزة جامعة لمحتوى المؤلف، حيث يرى الرازي أن عمله مراد به الإيجاز إلى حد المنتهى نحو التعريف بالإعجاز إفهاما وتوصيلا للمتلقين «واتجه بهذه الطريقة في التأليف إلى البلاغة باعتبارها مدار الإعجاز القرآني، فألف فيها مصنّفه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز". وواضح من عنوانه أنه قصد فيه إلى الإجمال والاختصار».[2]

يزيد الفخر نظراته في اللفظ والمعنى وعلاقتهما بالبلاغة والذوق والإقناع ولتوصيل؛ فيواصل طريق السابقين؛ وبالأخص عبد القاهر الجرجاني، لكنه يجتهد في تفصيل بعض الأقضية البلاغية «قال الفخر

---

*- سورة فصلت، الآيتان: 41، 42.

1 - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 275.

2 - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 275

الرازي إن الدلالة إما وضعية، كدلالة الحجر والجدار على مسمّاهما، وإما عقلية، وهي قسمان، لأنها إما أن تكون من باب دلالة الكل على الجزء مثل دلالة البيت على السقف، وإما أن تكون من باب دلالة الشيء على معنى لازم به، ويقول إن الدلالتين الأوليين وهما الدلالة الوضعية ودلالة الكل على الجزء لا تدخلان في علم الفصاحة».[1]

وفي هذا أطروحة دالة على وجوب التفريق ما بين الوضع والعقل، وما بينهما من علاقة ائتلاف أو اختلاف أو تداخل من حين إلى آخر، كما أنه أخرج الدلالة الوضعية ودلالة الكل على الجزء من علم الفصاحة التي هي مبتدأ البلاغة لا منتهاها؛ ولذلك أبعد تينك الدلالتين، وربما لقربهما من الوضع الذي هو أميل إلى الاجتهاد بين الإصابة والخطأ.

ومما تفرّد به وبه اختص عن غيره أنه أضاف فهما آخر للكلام إذ «يجعل للكلام طرفين: أعلى وأسفل وأوساطا بينهما، ويخرج الأسفل من البلاغة، أما الأوساط فإن كلا منها يعد بليغا بالقياس إلى ما ينزل عنه، ولا يلبث أن ينفذ إلى فكرة يعدل بها رأي الرماني بعض التعديل إذ يذهب إلى أن الطرف الأعلى وما يقرب منه هو المعجز الذي تقصر عنه بلاغة البشر، وكأنه يريد أن يقول إن آيات الذكر الحكيم يعلو بعضها بعضا في طبقة البلاغة، على أنها جميعا تشترك في الإعجاز وفي امتناع معارضتها، إذ تخرج عن طوق البلغاء».[2]

ويستنتج من هذا:

1. قد اتفق الرازي مع سابقيه في خصائص الإعجاز وأقسامه الأعلى والأدنى وما بينهما؛ لكنه يختلف عنهما في بعض ما ذهب إليه من جهوده الخاصة في المنهج والأسلوب والهدف

---

1 – المرجع نفسه، ص 277.

2 – المرجع السابق، ص 277

2. جدد تنسيق أبواب الدلائل وفصوله، وكذا الأسرار مع الاقتضاب وبعض الإبانة في مواقع معدودات، بالإضافة إلى عنوانات مزدانة من ابتكاره دلالة على تمعّنه في المصنّفين تمعّناً حكيما مستفيضاً.[1]
3. يضاف إلى ذلك اطلاعه على الكشاف للزمخشري ونكت الرماني وغيرهما والإفادة من جهودهما في أبواب البلاغة ومسائل الإعجاز.
4. الإفادة من تفسيره الكبير "مفاتيح الغيب" الذي يعد من أبز التفاسير التي تهتم بالبيان والبلاغة؛ فهو متخصص في علم لتفسير إضافة إلى أنه يتكلم في البلاغة العربية من خلال كتابه "نهاية الإعجاز"؛ «وتظهر أيضا الروح البلاغية للفخر من خلال تفسيره، فقد أودعه كثيراً من النكات البلاغية واللطائف، ونقل جلّ ما قاله في النهاية من قوانين وأصول إلى حيّز التطبيق والتحليل، بل إنه وسّع القول فيها، فأضاف وناقش وخالف ووافق بعقلية متميّزة، وهو في كل هذا يستمد ضوءه من مشكاة عبد القاهر و الزمخشري وغيرهما».[2]

ثالثا: السكاكي بين تراكمية البلاغة وجديد المعيارية والتعقيد.

نهج السكاكي في " **مفتاح العلوم** " طريق الأسبقين في بحث القضايا البلاغية ضمن الجهود التراكمية كحس معرفي عالمي في أي حقل من العلوم والفنون ؛ مثل الدرس البلاغي الذي قال فيه عشرات العلماء بمصنفاتهم ومدوناتهم فكرر الكثير ولم يختلف عن سابقيه في كثير من

---

[1] –ينظر: بدوي طبانة، **البيان العربي – دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى**، دار الثقافة، بيروت، (لبنان)، 1406هـ–1986م، ص 250، 251.

[2] – فائزة سالم صالح يحي أحمد، **علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية**، (مخطوط أطروحة دكتوراه) بإشراف الدكتور علي محمد حسن العماري، جامعة أم القرى، السعودية، م 1، 1412هـ–1992م، ص 34.

الأصول والمسائل، في الوقت نفسه اختص بنظرة جديدة في منهج يراه ملائما للتفكير البلاغي في أيامه.

وعصر السكاكي طغَت فيه المقاييس البلاغية التي تخضع للمعيارية والتقسيمات المتفرعة غير المتناهية؛ ناهيك عن روح العصر التي شابها ركود الحياة الأدبية وآخرها في تجميد الدرس البلاغي كما يرى غالبية الدارسين، ذلك لذيوع الزخرف البديعي والتفنن في تصنيعه والمغالاة في وعي القول وركوب أغرب من أفانين الممارسة البيانية والبديعية الغريبة.

"مفتاح العلوم" هو العنوان الذي يتلو مدونة من كتب البلاغة العديدة المتعددة بدءا من الجاحظ وأضرابه، عنوان كأنه لم يسبق في اختصاصه أي تفرده باكتساب الآلة التي بها تنال العلوم العربية في نظره، حتى قال « ورأيت أذكياء أهل زماني الفاضلين الكاملي الفضل، قد طال إلحاحهم علي في أن أصنف لهم مختصرا يحظيهم بأوفر حظ منه،وأن يكون أسلوبه أقرب من أسلوب من فهم كل ذكي »[1]،وكأن في هذا الاختيار إشارة إلى الذي أصاب المتعلمين للدرس البلاغي في زمانه وقد فقدوا المداخل المنهجية والدلائل الصحيحة التي بها يلجون أبواب البلاغة وعلومها.

ومما يريده من العنوان إحالة المتلقي إلى وزن العلوم التي صنفها أسسا للكتابة«وكتاب المفتاح هو غرة مصنفة وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية، تحدث في القسم الأول منها عن علم الصرف وما يتصل به من الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر، وجعل في القسم الثاني لعلم النحو، أما القسم الثالث فخص به علم المعاني وعلم البيان، وألحق بهما نظرة في الفصاحة والبلاغة ودراسة للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية». [2]

---

[1] _ أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، **مفتاح العلوم**، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب، بيروت، لبنان،1983، ص 422.

[2] – شوقي ضيف،مرجع.سابق،ص 287.

كل هذا بيان عن المحيطات التي أحاطت بالدرس البلاغي فشد رحاله بين أهله ومتلقيه، مما يطلعنا على أثر التراكمية البلاغية التي لم تضبط في غالبها بمنهج علمي يضل سليما طوال تلك القرون، وخاصة التي جاءت تالية لجهود عبد القاهر الجرجاني، قرون ظمئت فيها الحياة المعرفية وتزلزلت موازين الثقافة وخصوبة الأدب والفنون لتزعزع في حيوات أخرى اجتماعا واقتصادا وسياسة...

وفي معرض حديثة عن تلك العلوم ركز على علمي المعاني والبيان ثم يتلوهما البديع، «نظم دراسة الفنون البيانية في علمين، هما علم المعاني وعلم البيان، وجعل علم البديع تابعا لها. وقال عن علم المعاني أنه: تتبع لخواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره » [1] ناهيك عن الاستدلال والمنطق والعروض والقوافي...

والملفت للنظر أن السكاكي يقدم مباحثه تقديما لا يكاد يخلو من العود إلى الأحكام التي وصل إليها سابقوه ومن أبرزهم الجرجاني والزمخشري في مسائل كثيرة لا يمكن بسطها هنا [2]، فقد يؤيدهم وقد يعارضهم مخلا عقله وتفكيره مستدلا بالبرهان والاستشهاد في مواطن النحو والمعاني والبديع وغيرها، وهو الذي يقر بمنهجه « أعلم أني مهدت في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها».[3]

عرض مباحثه النحوية والصرفية مبينا فعلهما في الاستيعاب والمعرفة لدى المتلقي لأنها من آلات العلوم التي قصدها في كتابه، كما فرق بين الفصاحة والبلاغة وجعل لكل منهما أدواره الخاصة، «وتحديدا

---

[1] – بدوي طبانة، مرجع.سابق، ص253.

[2] – ينظر: شوقي ضيف، مرجع.سابق،ص 286 _313.

[3] _السكاكي، مفتاح العلوم، ص 36

بالبلاغة فعرفها بأنها "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكتابة على وجهها" وواضح أن البلاغة عنده إنما تشمل على المعاني والبيان فقط ».[1]

وفي هذا تعريف بماهية البلاغة تعريف دقيق يتم عن كبير الاستيعاب لدى السكاكي كلها والتعريفات التي طرقها الأولون من قبله أي أنه:

1- تبحر في دراسة المصنفات السابقة في تعريفها البلاغة.

2- غلب تعريفا له طابع عقلي منطقي يتضح في أسلوبه وصياغته التعريف.

3-ركز على المتلقي والرسالة والمتحدث إيمان بالتوفيق حقا؛ أي الإيصال و الإبلاغ والإقناع.

4-تميز بمصطلحات مخصوصة تظهر في تعريفه مثل: تأدية/ اختصاص/توفية/خواص التراكيب...

5-بين أن أداء المعاني مشروط مسافة توصيله بين المرسل والمرسل إليه يتم فيها إبلاغ تراكيب اللغوية التي هيئت لتفهم المتلقي وإيفاء حقها سواء في التشبيه أو المجاز أوالكناية...

ومما طبع جهود السكاكي بالجمع بين الجديد وتراكمية الدرس البلاغي من قبله، محاولة توقيفه بين فطرة الذوق ومعايير القواعد «ويؤكد السكاكي على ضرورة تحكيم الذوق من خلال الربط بينه وبين المعايير البلاغية حين بين أن الطريق لاكتساب الذوق سلامة الطبع الذي هو هبة الله للإنسان لا يكون إلا بتعلم البلاغة بالفصاحة وطول خدمتها، ويقول في ختام حديثه عن الإسناد الخبري: "وإن هذا الفن لا تلين عريكته ولا تنقاد قرونته بمجرد استقرار صور من هو تتبع مظان أخوات لها، وإتعاب النفس بتكرارها،

[1] - شوقي ضيف، م.س، ص311.

واستيداع الخاطر وتحصيلها، بل لا بد من ممارسات لها كثيرة، ومراجعات فيها طويلة، مع فضل إلهي من سلامة خطرة، واستقامة طبيعية، وشدة ذكاء، وصفاء قريحة، وعقل وافر "».[1]

وعليه فالسكاكي باحث قدير بكل عملية علمية تعليمية، إذ إنه ينتبه دوما إلى العملية التعليمية،خاصة وأن المتعلمين في عصره أصيبوا بجفاف القرائح وذيوع العجمة واللحن وغيرهما من أسباب الانحدار وزعزعة الاستقرار وعليه فإنه:

1- وفق بين ضرورة الجمع للذائقة الصيفية والقاعدة العلمية

2- أكد على تربية الذوق تحتاج إلى الاستمرار والدربة والصبر والتكرار.

3- مثل الاستناد كنكهة بلاغية لأنه عالم يؤالف بين الإفرادات والتراكيب في البيان، وهو كغيره من العلماء الأوائل لم يغفلوا نحو النص ولسانيات النص"اعتمادا على ضرورة التضام والتماسك في الأسيقة والنظم".

4- أبان في هذا على أنه خبير بمستلزمات التعليم والتعلم ؛ فهو يراعي معطيات وشرائط نفسية ومنهجية للناشئة خصوصا، مثل طول النفس، قوة الجلد، التدرج والاستئناس باليسير والبسيط رويدا رويدا، مراجعة الاكتساب وتفقدها، سلامة الآلات الفيزيولوجية كاللسان والسمع وغيرهما، جذوة الذكاء وحثها على القراءة والاطلاع والحوار والتحليل والحفظ والاستنباط وفق المرحلة العمرية للمتلقي، تصفية القريحة بقراءة الأصول كالقرآن الكريم وعيون الشعر العربي...، ومع كل ذلك ثمة جانب روحي هو الأساس تلك المعطيات والشرائط يتجلى في الإمداد الإلهي واستدرار أفضاله قصد التوفيق في كل حركة وسكون؛ فهو العالم العلمي المعطي.

---

[1] - يوسف رزقة، **القاعدة والذوق في البلاغة السكاكي**، "مجلة الجامعة.الإسلامية"، غزة، م7،ع1، يناير 1999، ص196.

خـاتمة:

لا يمكن للبحث البلاغي أن يدرس خارج إطاره التاريخي التنظيري والتطبيقي لدى واضعي أسس المنهج المعرفي والفكري ؛ لما خاضوا في إجراء أدواتهم التوثيقية والتنقيبية و التحليلية والاستنباطية والمقارنة... وسائر الآلات المنطقية في تصنيف مؤلفاتهم البلاغية.

وبناء على ذلك فإن المباحث التي بسطت سلفا في صيغة التدرج التاريخي لتلك الجهود من الزمخشري إلى غاية الزملكاني تتجلى خطواتها في تمديد الأطاريح الأولى للبحث البلاغي منذ القرون الأولى ؛ ومنه فإن أهم النتائج لبصمات التأثيل البلاغي ائتلافا واختلافا وتداخلا بين أولئك الأعلام جميعا هي :

1_ بصمة الزمخشري شاهد منهجي منماز يؤثل النقلة البحثية في البلاغة ؛ و هو ممثل المرحلة الفاصلة بين أجيال الإمام عبد القاهر الجرجاني ومن جاء بعد الزمخشري إلى غاية نهاية القرن السابع الهجري، وعليه فلا يحق لبحث علمي أن يتجاوز تلك البصمة الزمخشرية وهو يبتغي الاستنباط الصحيح للأحكام السليمة.

2_ الفخر الرازي واحد من علماء التفسير وعلم اللغة الذين أصلوا تشعيب المسائل البلاغية وتقليب أوجهها الإعجازية تأثيلا ودراسة وتخريجا ، قصد إصدار الدلالات الحقيقية من الآي الحكيمة قدر ما يمكن من منتهى الفهم؛ ذلك جمعا بين النص والجهد العقلي.

3_ تفرد السكاكي بتأثيل قواعد التعليمية للدرس البلاغي ؛ ومحاولته تقريب الأقضية البلاغية بأسلوب يقنع به المتلقين حسب مستوياتهم الشتى، عملا منه بقرب الباحث من جمهوره وعنايته بما يحدث من تزلزل في الواقع اللغوي في ذلك العصر.

4_ الدعوة أخيرا إلى سائر البحثة في علم الأدب والنقد البلاغي والأدبي والدراسات اللغوية العربية، أن يعمقوا البحث بخصوص نقد المناهج التراثية وجهر سبقها الثر إلى مناقشة الدرس البلاغي بعد تأصيله ؛ ثم الدعوة نفسها بغية تمديد النقد الجاد للتطبيقات البلاغية التراثية و ما وصلت إليه أحكامها واستنباطاتها، أضف إلى ذلك الدراسة المقارنة بين منهج التراثيين وما حققته البلاغة الحديثة والأسلوبية وتحليل الخطاب وكافة النقود النسقية سواء أتعلق البحث المقارن بالعرب والمسلمين أم غيرهم.

المصادر و المراجع :

_ القرآن العظيم، المصحف الشريف برواية الإمام ورش عن الإمام نافع.

– بدوي طبانة، البيان العربي – دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، دار الثقافة، بيروت،(لبنان)، 1406هـ–1986م.

– أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل دار المعرفة، بيروت، (لبنان)، (د.ت)، ج1.

– أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب،بيروت،لبنان،1983

– شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، (مصر)، ط 9، 1995.

– صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث، القاهرة، (مصر)، الكتاب الأول، 1423هـ–2003م.

– فائزة سالم صالح يحي أحمد، علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية، (مخطوط أطروحة دكتوراه) بإشراف الدكتور علي محمد حسن العماري، جامعة أم القرى، (السعودية)، م1، 1412هـ–1992م.

– مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، بيروت،(لبنان).

– يوسف رزقة، القاعدة والذوق في البلاغة السكاكي، في مجلة الجامعة.الإسلامية، غزة، م7، ع1، يناير 1999.